تقي الدين النبهاني

التكتل الحزبي

من منشـــورات

حـــزب التحـــرير

تقي الدين النبهاني

التكتل الحزبي

من منشـــورات

حـــزب التحـــرير

١

الطـــبعة الأولى
١٣٧٢هـــ ـ ١٩٥٣م

الطـــبعة الرابعـــة
١٤٢٢هـــ ـ ٢٠٠١م
(طـــبعـــة معـــتمـــدة)

بسم الله الرحمن الرحيم

التكتـــل الحـــزبي

منذ القرن الثالث عشر الهجري (التاسع عشر الميلادي) قامت حركات متعددة للنهضة، كانت محاولات لم تنجح، وإن تركت أثراً فعالاً فيمن أتى بعدها، ليعيدوا المحاولات مرة أخرى. ويرى المتتبع لهذه المحاولات، الدارس لهذه الحركات، أن السبب الرئيسي في إخفاقها جميعها يرجع من ناحية تكتلية إلى أربعة أمور:

أولها- أنها كانت تقوم على فكرة عامة غير محددة، حتى إنها كانت غامضة، أو شبه غامضة، علاوة على أنها كانت تفقد التبلور والنقاء والصفاء.

وثانيها- أنها لم تكن تعرف طريقة لتنفيذ فكرتها، بل كانت الفكرة تسير بوسائل مرتجلة وملتوية، فضلاً عن أنه كان يكتنفها الغموض والإبهام.

وثالثها- أنها كانت تعتمد على أشخاص لم يكتمل فيهم الوعي الصحيح، ولم تتمركز لديهم الإرادة الصحيحة، بل كانوا أشخاصاً عندهم الرغبة والحماس فقط.

ورابعها- أنّ هؤلاء الأشخاص الذين كانوا يضطلعون بعبء الحركات لم تكن بينهم رابطة صحيحة سوى مجرد التكتل الذي يأخذ صوراً من الأعمال، وألفاظاً متعددة من الأسماء.

ولهذا كان من الطبيعي أن تندفع هذه الكتل فيما عندها من مخزون الجهد والحماس حتى ينفد، ثم تخمد حركتها وتنقرض، وتقوم بعدها حركات أخرى، من أشخاص آخرين، يقومون بنفس الدور، حتى يفرغوا مخزون حماسهم وجهدهم عند حدّ معين، وهكذا دواليك.

وكان إخفاق جميع هذه الحركات طبيعياً، لأنها لم تقم على فكرة صحيحة واضحة محددة، ولم تعرف طريقة مستقيمة، ولم تقم على أشخاص واعين، ولا على رابطة صحيحة.

أما موضوع الفكرة والطريقة فهو ظاهر في خطأ الفلسفة التي كانت تقوم عليها هذه الحركات، على فرض وجود فلسفة لها. وهذه الحركات كانت حركات إسلامية، وحركات قومية. فكان القائمون على الحركات الإسلامية يدعون إلى الإسلام بشكل مفتوح عام، ويحاولون أن يفسروا الإسلام تفسيراً يتفق مع

الأوضاع التي كانت قائمة حينئذ، أو التي يراد أخذها من الأنظمة الأخرى، حتى يصلح الإسلام لأن يطبق عليها، وحتى يكون هذا التأويل مبرراً لبقائها أو أخذها. وأما القائمون على الحركات القومية، فقد كان العرب منهم يدعون إلى قيام نهضة العرب على أساس قومي غامض مبهم، بغض النظر عن الإسلام والمسلمين، وكانوا يعتمدون على ألفاظ القومية، والعزة، والكرامة، والعرب، والعروبة، والاستقلال، وما شابهها، دون أن يكون لهذه الألفاظ أي مفهوم واضح عندهم، يتفق مع حقيقة النهضة. وكان الترك منهم يدعون إلى قيام نهضة الوطن التركي على أساس القومية، ويوجه دعاة القومية من العرب والترك بتوجيه الاستعمار الذي كان يوجه البلقان أيضاً بهذه الحركات القومية لاستقلاله عن الدولة العثمانية بوصفها دولة إسلامية.

وقد قامت في العرب بين رجال الحركتين: الإسلامية والقومية، مجادلات كلامية في الصحف والمجلات، تتلخص في أيهما أفضل وأقرب: الجامعة العربية، أم الجامعة الإسلامية؟ ومضت مدة طويلة بذل فيها جهد لم ينتج، لأن كلاً من الجامعة العربية والجامعة الإسلامية مشروع استعماري لصرف الأذهان عن الدولة الإسلامية. ولذلك لم يقتصر إخفاق الجهد على عدم الإنتاج، بل تجاوز ذلك وأبعد الدولة الإسلامية عن الأعين والأذهان.

وقـامت إلى جـانب الحـركات الإسـلامية والحـركات القومية حركات وطنية في مختلف البلدان الإسلامية نتيجة لاستيلاء الكافـر المسـتعمر عـلى أجـزاء الدولـة الإسـلامية، ونتـيجة للظـلم السياسـي والاقتصـادي الواقـع عـلى الـناس من جراء تطبيق النظام الـرأسمالي عـليهم. ومـع أن هذه الحركات كانت رجعاً لهذه الآلام فـإن منها ما بقيت الناحية الإسلامية تسيطر عليه، ومنها ما كانت الـناحية الوطـنية البحـتة هـي الـتي تسـيطر عليه من جراء الحركات الاصـطناعية الـتي كـان يقـوم بهـا المسـتعمر. وكان من جراء هذه الـناحية الوطنية أن اندفعت هذه الحركات وأشغلت الأمة بالكفاح الـرخيص الـذي ثـبت أقـدام الأعـداء فضـلاً عما كان ينقصها من وجود أي فكر يسيرها.

إنـنا نعـتقد أن الفلسـفة الحقيقيـة للنهضـة هـي مبدأ يجمع الفكرة والطريقة معاً، وأن هذا المبدأ هو الإسلام، لأنه عقيدة ينبثق عـنها نظـام لجميـع شـؤون الدولـة والأمـة، ومعالجة جميع مشاكل الحيـاة. ومـع كونـه نظاماً عالمياً، فإنه ليس من طريقته أن يعمل له مـن الـبدء بشـكل عـالمي، بـل لا بـد مـن أن يُدعـى له عالمياً، وأن يُجعـل مجـال العمـل له في قطـر أو أقطار حتى يتمركز فيها، فتقوم الدولـة الإسـلامية الـتي تـنمو نمـواً طـبيعياً حـتى تشمل جميع البلاد الإسـلامية أولاً، ثـم تحملـه الدولـة الإسـلامية لـباقي أنحـاء العـالم، باعتباره رسالتها، وباعتباره رسالة إنسانية عالمية خالدة.

إن العالم كله مكان صالح للدعوة الإسلامية، غير أنه لما كانت البلاد الإسلامية يدين أهلها بالإسلام كان لا بد أن تبدأ الدعوة فيها، ولما كانت البلاد العربية بوصفها جزءاً من البلاد الإسلامية تتكلم اللغة العربية، واللغة العربية جزء جوهري في الإسلام، وعنصر أساسي من عناصر الثقافة الإسلامية؛ كان أولى البلاد بالبدء في حمل هذه الدعوة هي البلاد العربية، وكان لا بد من مزج الطاقة العربية بالطاقة الإسلامية لتتحد اللغة العربية بالإسلام لما فيهما من القدرة على التأثير والتوسع والانتشار. ولهذا فإن من الطبيعي أن تنشأ الدولة الإسلامية في البلاد العربية لتكون نواة للدولة الإسلامية، التي تشمل جميع بلاد الإسلام. ومع أنه من المحتم أن يُدعى للإسلام في البلاد العربية، إلا أنه من المحتم كذلك أن ترسل الدعوة إلى سائر البلاد الإسلامية. وليس معنى بدء العمل في البلاد العربية أنه لا يعمل في غيرها قبل أن يتم توحيدها في الدولة الإسلامية، بل يعمل في البلاد العربية لإقامة الدولة الإسلامية، ثم تنمو الدولة فيما جاورها بقطع النظر عن كونه بلداً عربياً أو غير عربي.

قلنا إن الفلسفة الحقيقية للنهضة هي مبدأ يجمع الفكرة والطريقة معاً. وهما لا بد من تفهمهما لكل تكتل يهدف إلى القيام بعمل جدي يؤدي إلى النهضة.

وقد وضح هذا المبدأ وصار تفهمه لأجل التكتل متيسراً. ولذلك فالطبيعي بعد ذلك البيان الشافي للمبدأ، أن يكون التكتل المسبوق بهذا التفهم تكتلاً مؤثراً، إنشائياً، ارتقائياً، جديراً بأن يحتضنه المجتمع ويتكفله، وأن يضطلع بأعبائه، لأنه تكتل هاضم لفكرته، مبصر لطريقته، فاهم لقضيته.

إلا أن مجرد سبق التفهم للتكتل لا يؤدي إلى النهضة الصحيحة إلا إذا كان الأشخاص صالحين لهذا التكتل، وكانت الرابطة التي تربط هؤلاء الأشخاص في كتلة رابطة صحيحة منتجة. وعلى حسب طريقة الربط في التكتل تقرر صلاحية الأشخاص. فالحزب المبدئي يجعل طريقة الربط في تكتله اعتناق العقيدة، والنضج في الثقافة الحزبية. ولذلك تقرر صلاحية الأشخاص طبيعياً بانصهارهم في الحزب حين تتفاعل الدعوة معهم. فيكون الذي قرر صلاحيتهم هو طريقة الربط، لا هيئة الحزب، لأن الرابطة التي تربط هؤلاء الأشخاص في كتلة هي العقيدة، والثقافة الحزبية المنبثقة عن هذه العقيدة.

وإذا استعرضنا التكتلات التي كانت في الحركات التي ظهرت خلال القرن التاسع عشر نجد أن طريقة تكتلها الفاسدة كانت سبباً رئيسياً لإخفاقها لأنها لم تقم على أساس حزبي مسبوق بتفهم حقيقي، وإنما قامت على أساس جمعي، أو أساس حزبي اسماً.

وذلك أن المسلمين كانوا قبل الحرب العالمية الأولى يشعرون بأنه توجد لهم دولة إسلامية. وبالرغم من ضعف هذه الدولة وانهيارها، واختلاف النظرة إليها، فقد كانت تحتل مركز اتجاه الفكر والبصر. فيراها العرب هاضمةً لحقهم، مسلطةً عليهم، ولكنهم كانوا يتجهون بأبصارهم وبصائرهم إليها لإصلاحها، فقد كانت دولتهم على كل حال. وهؤلاء كان ينقصهم فهم حقيقة النهضة، وفهم طريقتها، و لم يحصل بينهم تكتل. ونستطيع أن نحكم بأن هؤلاء هم أكثر المسلمين.

غير أن هذا العصر كانت فيه الثقافة الأجنبية قد غزت البلاد الإسلامية. وبواسطتها استطاع المستعمرون أن يجذبوا إليهم نفراً من المسلمين، أغروهم على إقامة تكتلات حزبية داخل الدولة الإسلامية، تقوم على أساس الانفصال والاستقلال. واستطاع المستعمرون بوجه خاص أن يجذبوا إليهم نفراً من العرب، جمعوهم في باريس، ليكوّنوا منهم كتلة تقوم بمحاربة الدولة العثمانية، باسم استقلال العرب عنها. وقد جمعت بينهم تلك الثقافة الأجنبية، والأفكار الأجنبية، والمشاعر الوطنية والقومية التي أوجدها عندهم الكافر المستعمر، فكانت رابطتهم العقلية والشعورية رابطة واحدة، ويجمعهم منطق واحد، أدى إلى توحيد الهدف، وهو الاستقلال للشعب العربي، ما دامت الدولة العثمانية تغاضت عن مصالحهم،

وأجازت لنفسها ظلمهم، وهضم حقوقهم. فكان هذا الهدف الموحد أداة تكتلوا عليها تكتلاً حزبياً اسماً، أدى إلى إعداد الثورة العربية، وأنتج ما أنتجه من بسط نفوذ الكفر والاستعمار على البلاد الإسلامية، ولا سيّما البلاد العربية. وانتهت مهمة هذه الأحزاب عند هذا الحد. وتقاسمت الغنائم، بوجودها حكاماً على بعض البلدان الإسلامية عملاء لهذا الاستعمار.

وبعد أن أزيلت الدولة الإسلامية من الوجود قام الاستعمار مقامها، يحكم البلاد العربية مباشرة، ويبسط نفوذه على سائر البلاد الإسلامية. فاحتل البلاد العربية فعلاً، وأخذ يركز أقدامه في كل جزء منها، بأساليبه ووسائله الخفية الخبيثة، التي من أهمها الثقافة الاستعمارية الأجنبية، والمال والعملاء.

وقد كان للثقافة الأجنبية الأثر الأكبر في تركيز أفكار الكفر والاستعمار، وفي عدم نجاح النهضة، وفي إخفاق الحركات التكتلية، سواء الجمعية والحزبية، لأن للثقافة الأثر الأكبر في الفكر الإنساني، الذي يؤثر في مجرى الحياة. وقد وضع الاستعمار مناهج التعليم والثقافة على أساس فلسفة ثابتة، هي وجهة نظره في الحياة التي هي فصل المادة عن الروح، وفصل الدين عن الدولة. وجعل شخصيته وحدها الأساس الذي تنتزع منه ثقافتنا. وجعل حضارته ومفاهيمه ومكونات بلاده وتاريخه وبيئته المصدر الأصلي لما نحشو

بـه عقولـنا. و لم يكتف بذلك، بل جعل المغالطة أيضاً متعمدة فيما ينـتزعه لـنا مـن شخصـيته مـن مفـاهيم وحقـائق، وعكس الصورة الاسـتعمارية عـلى هـذه الشخصـية بإعطائهـا الوضـع المثالي الذي يقـتدى بـه، والوضـع القوي الذي لا يستغنى عن السير معه، مخفياً وجه الاستعمار الحقيقي بالأساليب الخبيثة. ثم تدخل في تفصيلات هـذه الـبرامج حـتى لا تخـرج جـزئية مـن جـزئياتها عن هذا المنهج العـام. ولذلـك أصـبحنا مـثقفين ثقافـة فاسـدة، تُعلمنا كيف يفكر غيرنـا، وتجعل فينا العجز –طبيعياً– عن أن نتعلم كيف نفكر نحن، لأن فكـرنا غـير متصـل ببيئتـنا، وشخصيتنا، وتاريخنا، ولا مستمد مـن مبدئنا. وبذلك أصبحنا –بوصفنا مثقفين– غرباء عن الشعب، غـير واعـين عـلى محيطـنا، ولا عـلى حاجاتـه. وبذلك صار شعور المـثقفين منفصلاً عن فكرهم وعقلهم، وصاروا –طبيعياً– منفصلين عـن الأمـة وعـن شـعورها وأحاسيسـها، وصـار –طـبيعياً– أن لا يـؤدي هـذا الفكـر إلى تفهـم صـحيح للوضع القائم في البلاد، ولا يـؤدي إلى تفهـم صـحيح لحاجات الأمة، ولا يؤدي إلى وعي على الطـريقة للنهضـة، لأنه فكر منفصل عن الشعور، إن لم يكن خالياً مـن الشـعور، وهـو فـوق ذلـك كله فكر أجنبي، يحمله شخص له شـعور إسـلامي. فصـار طـبيعياً أن لا يـؤدي هـذا الفكر إلى تكتل صـحيح، مسـبوق بـتفهم صـحيح. و لم يقتصـر أثر الثقافة الأجنبية

على المثقفين أنفسهم، بل صار المجتمع بجملته من جراء الأفكار التي تحملها هذه الثقافة منفصلاً فكره عن شعوره، وكان من جراء ذلك أن تعقدت المشكلة في المجتمع، وتضاعف ثقل العبء في النهضة على التكتل الحزبي الصحيح، عما كان عليه قبل الحرب العالمية الأولى، إذ بعد أن كانت المشكلة التي تواجهها الأمة أو الحزب هي مشكلة النهضة بالمجتمع الإسلامي صارت المشكلة الآن إيجاد التناسق بين الفكر والشعور عند المثقفين، وإيجاد التناسق بين أفراد المجتمع وجماعته في الفكر والشعور، ولا سيما بين المثقفين ومجتمعهم، لأن هؤلاء المثقفين قد أخلصوا للفكر الأجنبي المجرد، الخالي من الشعور، وحملهم هذا الإخلاص على الوحشة من مجتمعهم واحتقاره، والابتعاد عنه، ومقابلته بعدم الاكتراث، كما حملهم على الأنس بالأجنبي، واحترامه، والتقرب منه، ومقابلته بالاهتمام، ولو كان مستعمراً. ولذلك لا يمكن لهذا المثقف أن يتصور الأوضاع القائمة في بلاده إلا تقليداً لهذا الأجنبي في تصوره أوضاع بلاده، دون إدراك لحقيقة هذه الأوضاع، ولذلك صار لا يعرف ما ينهض الأمة إلا تقليداً للأجنبي حين يتحدث عن النهضات، ولا تتحرك أحاسيس هذا المثقف من أجل المبدأ، وإنما تتحرك من أجل الوطن والشعب، وهو تحرك خاطئ. ومع ذلك فإنه لا يثور من أجل بلاده ثورة صحيحة ولا يضحي من أجل

الشعب تضحية كاملة، لأنه لا يشعر شعوراً فكرياً بالأوضاع التي تكتنفه، ولا يحس إحساساً فكرياً بحاجات الشعب. ولو فرضنا أنه ثار وطالب بالنهضة فإنها ثورة وليدة صدمة من الصدمات مع مصالحه الخاصة، أو ثورة تقليدية لثورات الشعوب. ولذلك لا تلبث أن تزول حين تذهب الصدمة بإلقامه وظيفة، أو إرضاء نزعاته، أو تزول حين تصطدم بأنانيته ومنافعه، أو يناله منها أذى.

ومثل هذا لا يمكن أن يوجد التكتل الصحيح منه إلا بعد معالجته بإيجاد التناسق بين فكره وبين شعوره بتثقيفه من جديد ثقافة مبدئية صحيحة، أي ثقافة إسلامية. ومعالجته بهذا التثقيف تقضي بأن يفرض تلميذاً يكوّن عقله تكويناً جديداً، حتى ينتقل بعد حل هذه المشكلة إلى إيجاد التناسق بينه وبين مجتمعه، فيسهل حينئذ حل مشكلة النهضة في المجتمع. ولولا الثقافة الأجنبية لكانت النهضة أقل تكاليف منها الآن.

وعليه فإنه يستحيل بهذه الثقافة الأجنبية في المجتمع أن يوجد تكتل حزبي صحيح، ولا أن يوجد على أساسها مثل هذا التكتل.

ولم يكتف الاستعمار بهذه الثقافة بل سمم الجو بأفكار وآراء سياسية وفلسفية أفسد بها وجهة النظر الصحيحة عند المسلمين، وأفسد بها الجو الإسلامي، وبلبل الفكر لدى المسلمين بلبلة ظاهرة في مختلف نواحي الحياة. وبذلك أفقدهم المركز الذي

يـدور حـولـه تنبههم الطبيعي. وجعل كل يقظة تتحول إلى حركة مضـطربة متناقضـة، تشـبه حـركة المذبوح، تنتهي بالخمود واليأس والاستسـلام. فقـد اسـتغل الأجـنبي جعـلَ شخصـيته مركـز دائـرة الـثقافة، وموضـع الاتجـاه نحوهـا – اسـتغلها في النواحي السياسية، وجعـل قبـلة أنظار السياسيين أو محترفي السياسة الاستعانة بالأجنبي والاتكال عليه. ولذلك صارت أكثر التكتلات تحاول –لا شعورياً– أن تسـتعين بالأجـانب. فقـام في الـبلاد من يرى الاستعانة بالدول الأجنـبية دون أن يعـوا أن كـل اسـتعانة بأجـنبي، وترويج للاتكال عـلى أجنبي –أياً كان جنسه– يعتبر تسميماً أجنبياً، وخيانة للأمة، ولـو عـن حسـن نيـة. وصـاروا لا يدركـون أن ربـط قضـيتنا بغير أنفسـنا يعتـبر انـتحاراً سياسياً. ولهذا لا يمكن أن يكون هناك نجاح لقيام أي تكتل تسمم فكره بالاتكال على الأجنبي أو الترويج له.

وكذلـك سمـم المجتمع بالوطنية، وبالقومية، وبالاشتراكية، كمـا سممـه بالإقليمية الضـيقة فجعـلها محـور العمـل الآني، وكما سممـه أيضـاً باسـتحالة قيـام الدولـة الإسـلامية، وباسـتحالة وحدة البلاد الإسلامية، مع وجود الاختلاف المدني والعنصري واللغوي، مـع أنهـا جميعهـا أمـة واحـدة، تربطها العقيدة الإسلامية التي ينبثق عـنها نظامهـا. وسممـه بغـير ذلـك أيضـاً مـن الأفكـار السياسـية المغـلوطة، مـثل قولهـم: (خـذ وطـالب) ومـثل: (الأمـة مصـدر

السلطات) ومثل: (السيادة للشعب) وغير ذلك. وسممه بالأفكار الخاطئة مثل قولهم: (الدين لله والوطن للجميع) ومثل: (توحدنا الآلام والآمال) ومثل: (الوطن فوق الجميع) ومثل: (العزة للوطن) وما شابه ذلك. وكذلك سممه بالآراء الواقعية الرجعية مثل قولهم: (إننا نأخذ نظامنا من واقعنا) ومثل قولهم: (الرضا بالأمر الواقع) ، ومثل: (يجب أن نكون واقعيين) وما شاكل ذلك.

وكان من جراء هذا التسميم أن قام المجتمع في البلاد الإسلامية، ومنها البلاد العربية، على حال لا تؤدي إلى قيام تكتل صحيح. ولذلك لم يكن عجيباً أن أخفقت التكتلات الحزبية اسماً جميعها، لأنها لم تقم على أساس فكر عميق، يؤدي إلى تنظيم دقيق، وإعداد موثوق به، بل قامت على غير أساس.

ومن هنا كان طبيعياً أن تكون الأحزاب التي قامت في العالم الإسلامي، ولا سيما العالم العربي، أحزاباً مفككة، لأنها قامت على غير مبدأ. ومن تتبعها يرى أنها قد قامت على أساس مناسبات طارئة، أوجدتها ظروف اقتضت قيام تكتلات حزبية، ثم ذهبت هذه الظروف، فذهبت بذهابها الأحزاب، أو ضعفت وتلاشت. أو قامت على أساس صداقات بين أشخاص، لاءمت بينهم هذه الصداقات، فتكتلوا على أساسها، وانتهى تكتلهم بدورانهم حول أنفسهم. أو على أساس مصالح آنية أنانية، أو غير

ذلـك. وبهـذا لم يكـن بـين الأشـخاص الذيـن تكتـلوا عـلى هـذه الأسس، وفي هذه الأجواء والمجتمعات، رابطة حزبية مبدئية، فكان وجودهـا ليـس خالياً من المنفعة فحسب، بل ضاراً بالأمة. وفضلاً عن أن وجودها في المجتمع يحول دون وجود الحزبية الصحيحة، أو يؤخـر ظهورهـا، فإنها تغرس اليأس في نفوس الجمهور، وتملأ قلب العامـة بالسـواد والشـك، وتبعث الريبة في كل حركة حزبية، ولو كـانت صـحيحة. وتبذر بين الناس الحزازات الشخصية، والأحقاد العائلية، وتعلمهم بأساليبها التذبذب والدوران وراء المنفعة. وبعبارة أخـرى تفسـد على الجمهور طبيعته النقية، وتزيد العبء ثقلاً على التكتلات الحزبية الصحيحة التي لا بد لها أن تنبثق من صميم الجمهور.

وقامت إلى جانب الحركات الإسلامية والقومية والوطنية حـركات شـيوعية تقوم على أساس المادية. وكانت هذه الحركات تابعـة لـلحركة الشـيوعية في روسـيا وموجهة بتوجيهها. وطريقتها الهـدم والـتخريب. ومـن غايـتها –مـع إيجـاد الشـيوعية في البلاد– التشـويش على الاستعمار الغربي لصالح المعسكر الشرقي، بوصف القـائمين عـليها عمـلاء له، و لم تتجاوب هذه الحركات مع الأمة، و لم تحـدث أثـراً. وكـان إخفاقهـا طـبيعياً، لأنهـا تخـالف فطـرة الإنسـان، وتـناقض عقيـدة الإسـلام. وقد سخرت الوطنية لمآربها. وكانت عقدة تضاف إلى العقد التي يرزح تحتها المجتمع.

وقد قامت تكتلات أخرى على أساس الجمعيات، فقامت في البلاد جمعيات محلية وإقليمية، تهدف إلى غايات خيرية، فأقامت مدارس ومستشفيات وملاجئ، وساعدت في أعمال البر والخير، وكانت تغلب على هذه الجمعيات الصبغة الطائفية. وقد شجع الاستعمار هذه الجمعيات، حتى ظهرت أعمالها الخيرية للناس. وكانت أكثرها جمعيات ثقافية وخيرية، ولم يوجد بينها جمعيات سياسية إلا نادراً.

وإذا نظر بعين التدقيق إلى نتائج هذه الجمعيات، يرى أنها لم تثمر شيئاً ينفع الأمة أو يساعد على النهضة. وكان ضررها خفياً، بحيث لا يظهر إلا للمدقق، مع أن وجودها من حيث هو ضرر كبير، بغض النظر عن النفع الجزئي، وذلك أن الأمة الإسلامية برمتها، بحكم وجود بعض الأفكار الإسلامية، وبحكم تطبيقها لبعض الأحكام الشرعية، وبحكم تمكن المشاعر الإسلامية فيها بتأثير الإسلام، توجد فيها أحاسيس النهضة، وفيها عاطفة الخير، وفيها الميل الطبيعي للتكتل، لأن روح الإسلام روح جماعية، فإذا تركت الأمة الإسلامية وشأنها، تحول هذا الإحساس -منطقياً- إلى فكر، وأنتج هذا الفكر عملاً ينهض بالأمة. ولكن وجود الجمعيات حال دون ذلك، لأنها كانت متنفساً لهذه العاطفة المتأججة، وتصريفاً لذلك الإحساس في هذه الجزئية من

العمل، وهي جزئية الجمعية. فيرى عضو الجمعية أنه بنى مدرسة، أو أنشأ مستشفى، أو ساهم في عمل من أعمال البر، فيشعر بالراحة والطمأنينة، ويقنع بهذا العمل. بخلاف ما لو لم تنشأ هذه الجمعية، فإن الروح الجماعية تدفعه للتكتل الصحيح، وهو التكتل الحزبي، الذي يوجد النهضة الصحيحة.

وقامت إلى جانب الجمعيات الثقافية والخيرية جمعيات خُلُقِية تعمل لنهضة الأمة على أساس الأخلاق بالوعظ والإرشاد، والمحاضرات والنشرات، على اعتبار أن الخلق هو أساس النهضة. وقد بذلت في هذه الجمعيات جهود وأموال، ولكنها لم تكن لها نتائج مهمة، ونفست عاطفة الأمة بهذه الأحاديث المملولة المكررة المبتذلة. وقد كان قيام مثل هذه الجمعيات مبنياً على الفهم المغلوط لقوله تعالى مخاطباً الرسول ﷺ ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ مع أنه وصف لشخص الرسول وليس للمجتمع، ولقوله عليه السلام: «**إن الله بعثني لتمام مكارم الأخلاق**» ولقوله عليه السلام: «**إنَّما بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلاَق**»، مع أن هذين الحديثين وأمثالهما مما يتعلق بصفات الفرد لا بالجماعة. ومبنياً كذلك على خطأ الشاعر في قوله:

وإنّما الأممُ الأخلاقُ ما بَقِيَتْ فإنْ همُ ذهبتْ أخلاقُهمْ ذَهَبُوا

مع أن الأمم لا تكون بالأخلاق، وإنما تكون بالعقائد التي تعتنقها، وبالأفكار التي تحملها، وبالأنظمة التي تطبقها. وكان

كذلك مبنياً على الفهم المغلوط لمعنى المجتمع، من أنه مكون من أفراد، مع أن المجتمع هو كل مكون من أجزاء هي: الإنسان، والأفكار، والمشاعر، والأنظمة. وفساده إنما هو آت من فساد الأفكار والمشاعر والأنظمة، لا من فساد الإنسان. وإصلاحه إنما يكون بإصلاح أفكاره ومشاعره وأنظمته.

وكان كذلك مبنياً على ما تركز في الأذهان لدى كثير من المصلحين وعلماء الأخلاق، من أن الجماعة إنما يهدمها الفرد، والفرد إنما تبنيه وتهدمه أخلاقه، فالخُلق القويم يجعله قوياً، مستقيماً، فعالاً، منتجاً، عاملاً للخير والصلاح والإصلاح. والخُلق الذميم يجعله ضعيفاً مسترخياً، لا نفع منه، ولا خير فيه، ولا همّ له في الحياة إلا إشباع شهواته، وإرضاء أنانيته. ولذلك رأوا أن إصلاح الجماعة إنما يأتي من طريق إصلاح الفرد، فأرادوا إصلاح المجتمع بالمنهج الـخُلُقِي وتوسلوا بالأخلاق إلى إنهاض الأمة.

وبالرغم من إخفاق جميع الحركات الإصلاحية التي قامت على أساس القاعدة الخُلقية فإن الناس لا يزالون مقتنعين بأن هذه القاعدة هي أساس الإصلاح، وأقاموا الجمعيات الإصلاحية على هذا الأساس. مع أن الحقيقة أن وسائل إصلاح الجماعة غير وسائل إصلاح الفرد ولو كان جزءاً من الجماعة، لأن فساد الجماعة آتٍ من فساد مشاعرها الجماعية ومن فساد أجوائها

الفكـرية والـروحية، وآتٍ أيضـاً مـن وجـود المفاهيم المغلوطة عند الجماعة. وبعبارة أخرى آتٍ من فساد العرف العام. وإصلاحها لا يـأتي إلا بإيجـاد العـرف العـام الصالح. وبتعبير آخر لا يأتي إلا من إصـلاح مشـاعر الجماعـة، وإيجـاد الأجـواء الـروحية الصـحيحة، والأجـواء الفكـرية التي تتصل بالناحية الروحية، وتطبيق النظام من قـبل الدولـة. ولا يـتأتى ذلك إلا بإيجاد الأجواء الإسلامية، ولا بد مـن تصـحيح المفـاهيم للأشـياء عـند الـناس كافّـة. وبهـذا تصـلح الجماعـة، ويصـلح الفـرد. ولا يـتأتى ذلـك بالتكـتل عـلى أسـاس الجمعية، ولا بجعل الأخلاق والوعظ والإرشاد أساساً للتكتل.

ومن هنا جاء إخفاق جميع التكتلات على أساس الجمعيات في إحـداث نهضـة أو إصـلاح، كمـا جـاء إخفاق جميع التكتلات عـلى أساس التسمية الحزبية، التي لم تُبنَ على مبدأ معين، و لم تُسبق بتفهم ما، و لم تجعل رابطتها مبنية على جامع صحيح بين الأفراد.

عـلى أن إخفاق جميع هذه التكتلات كان محققاً أيضاً من ناحيـة أفـرادها، لأنهـا فضـلاً عـن قيامهـا عـلى غـير أساس تكتلي صـحيح، لعـدم وجود الفكرة والطريقة، ولخطأ الطريقة في التكتل، فإنها لم تكن تقيم تكتلاتها على أساس صلاحية الفرد الذاتية، وإنما كـانت تقـيمها عـلى أسـاس مكانـته في المجـتمع، وإمكـان وجـود الفائدة المعجلة من وجوده في الحزب أو الجمعية.

فقد كان العضو يختار على أساس أنه وجيه في قومه، أو غني بين جماعته، أو محام، أو طبيب، أو ذو مكانة ونفوذ، بغض النظر عن كونه صالحاً لهذه الكتلة التي يختار لها أم غير صالح. ولذلك كان يغلب على هذه التكتلات التفكك بين أعضائها، كما تغلب عليها الناحية الطبقية. فأعضاء الحزب أو الجمعية يداخلهم شعور خفي بأنهم يمتازون عن باقي الشعب، لا بمالهم ووجاهتهم فحسب، بل بكونهم أعضاء في الحزب أو الجمعية. ولذلك لا يحصل بينهم وبين الشعب أي تفاعل أو تقارب. فيكون وجود الجمعية أو الحزب ضغثاً على إبالة، وعقدة جديدة تضاف إلى العقد التي يرزح تحتها هذا المجتمع.

ولهذا نستطيع أن نقول بعد الدراسة والتفكر والاستقراء أن البلاد الإسلامية جميعها لم ينشأ فيها خلال القرن الفائت أي تكتل صحيح، يؤدي إلى نهضة. وجميع التكتلات التي حصلت أخفقت لقيامها على أساس مغلوط، مع أن الأمة لا تنهض إلا بالتكتل. فما هو التكتل الصحيح الذي يسبب نهضة الأمة؟ هذا ما نحتاج لبيانه.

إن التكتل الصحيح الذي تنهض الأمة به لا يجوز أن يكون على أساس الجمعية، التي يحتم نظامها الجمعي أن تقوم بأعمال وأقوال، أو بأعمال فقط أو بأقوال فقط. وهذا النوع من

التكتل لا يجوز أن يشجع في الأمة التي تود النهوض، ولا يجوز أن يكون على أساس الأحزاب غير المبدئية، كالتي قامت في العالم الإسلامي منذ الحرب العالمية الأولى حتى الآن.

وإنما التكتل الصحيح هو الذي يقوم على أساس حزبي مبدئي إسلامي، تكون الفكرة هي الروح لجسم الحزب، وهي نواته، وهي سر حياته. وتكون خليته الأولى إنساناً تتجسد فيه فكرة وطريقة من جنسها، حتى يكون إنساناً من جنس الفكرة في نقائه وصفائه، ومثل الطريقة في وضوحه واستقامته. ومتى وجدت هذه الأشياء الثلاثة: الفكرة العميقة، والطريقة الواضحة، والإنسان النقي، فقد وجدت الخلية الأولى. ثم لا تلبث هذه الخلية أن تتكاثر إلى خلايا تكون هي الحلقة الأولى للحزب (قيادة الحزب) . ومتى وجدت الحلقة الأولى فقد نبتت الكتلة الحزبية، لأن هذه الحلقة لا تلبث أن تتحول إلى كتلة. وحينئذ تحتاج هذه الكتلة إلى رابطة حزبية، تجمع بين الأشخاص الذين يعتنقون الفكرة والطريقة. هذه الرابطة الحزبية هي العقيدة التي تنبثق عنها فلسفة الحزب، والثقافة التي يتسم بمفاهيمها الحزب، وحينئذ تكون الكتلة الحزبية قد تكونت، وسارت في معترك الحياة. فتتقلب عليها الأجواء حارة وباردة، وتهب عليها الرياح عاصفة ولينة، وتتناوبها الأجواء صافية وملبدة، فإذا ثبتت لهذه العوامل فقد تبلورت فكرتها،

ووضـحت طريقـتها، وأعـدت أشخاصـها، وقـوت رابطـتها، واستطاعت أن تخطو الخطوة العملية في الدعوة والعمل من كتلة حزبية إلى حزب مبدئي متكامل يعمل للنهضة الصحيحة. هذا هو التكتل الصحيح الذي تكون نواته الفكرة، لأنها أس الحياة.

أما كيف ينشأ هذا التكتل الحزبي المبدئي في الأمة التي تريد النهوض نشوءاً طبيعياً، فهاك البيان:

الأمة جسم واحد لا يتجزأ، وهي في تكوينها الكلي كالإنسان. فكما أن الإنسان إذا مرض مرضاً شديداً أشفى منه على الموت، ثم أخذت تدب الحيوية فيه، فإنها تدب فيه كله بوصفه كلاً، وكذلك الأمة المنحطة تعتبر مريضة. وإذا دبت الحيوية فيها تدب فيها جميعها بوصفها مجموعة إنسانية واحدة باعتبارها كلاً. والحياة للأمة هي الفكرة التي تصحبها طريقة من جنسها، لتنفذ بها، فيتكون من مجموعهما ما يسمى المبدأ.

وليس مجرد وجود المبدأ في الأمة كافياً لبعث الحياة فيها، بل اهتداؤها للمبدأ، ووضعه موضع العمل في حياتها، هو الذي يجعلها حية، إذ قد يكون المبدأ موجوداً عند الأمة في تراثها التشريعي والثقافي والتاريخي ولكنها في غفلة عنه، أو في غفلة عن فكرته، أو عن طريقته، أو في غفلة عن ربطهما معاً. وفي هذه الحال لا يؤدي مجرد وجود الفكرة والطريقة إلى نهضة.

والحيوية تدب في الأمة عادة حين تحصل هزات عنيفة في المجتمع، ينتج عنها إحساس مشترك. وهذا الإحساس الجماعي يؤدي إلى عملية فكرية تنتج قضايا من جراء البحث في الأسباب والمسببات لهذه الهزة، والوسائل القريبة والبعيدة التي تنقذ منها.

إلا أن هذا الإحساس وإن كان واحداً مشتركاً في الجماعة بين أفرادها، فإنه يكون بنسب مختلفة بين الناس، على مقدار ما هيأهم الله له، بما حباهم من استعدادات ممتازة، ولذلك يظل اهتداؤها للفكرة كامناً فيها إلى أن يتجمع تأثيره، فيتركز فيمن نالوا قدراً أعلى من الإحساس، فيوقظهم ويلهمهم، ويبعث فيهم الحركة، فتظهر أعراض الحياة فيهم أولاً.

هؤلاء الذين نالوا قدراً أعلى من الإحساس تنطبع فيهم إحساسات الجماعة، وتتمركز فيهم الفكرة، فيتحركون حركة وعي وإدراك، وهم عيون الأمة، والثلة الواعية فيها.

إلا أن هذه الثلة الواعية تكون قلقة متحيرة، تبصر دروباً متعددة، وتتحير أي الطرق تسلك. ولكن حركة الوعي هذه، في هذه الثلة الجماعية، تختلف نسبها فيها. فيكون منطق الإحساس في بعضها أقوى منه في البعض الآخر، فيقوم من هذه الثلة الواعية فئة متميزة، تختار بعد الدراسة والعمق في البحث درباً من الدروب، وتبصر الغاية التي توصل إليها، كما تبصر وضوح الطريق،

فتسلكها، وتسير نحو غايتها، وبذلك تهتدي إلى المبدأ بفكرته وطريقته، وتعتقده عقيدة راسخة، فيتجسد فيها، ويصبح عقيدة لها. وتكون هذه العقيدة مع ثقافة الحزب هي الرابط بين أشخاص هذه الفئة.

وحين يتجسد المبدأ في الأشخاص لا يطيق أن يبقى حبيساً، بل يسوقهم إلى الدعوة له سوقاً. فتصبح أعمالهم متكيفة به، سائرة حسب منهجه، متقيدة بحدوده، ويصبح وجودهم من أجل المبدأ، ومن أجل الدعوة له، والقيام بتكاليفه، وهذه الدعوة تهدف إلى اعتناق الناس لهذا المبدأ وحده دون غيره، وإلى إيجاد الوعي العام به. فتتحول الحلقة الأولى إلى كتلة، ثم تتحول الكتلة إلى حزب مبدئي يأخذ في النمو الطبيعي في ناحيتين إحداهما التكاثر في خلاياه بإيجاد خلايا أخرى تعتنق المبدأ عن وعي وإدراك تامين، والثانية إيجاد الوعي العام به عند الأمة كلها. ويتكون من هذا الوعي العام على المبدأ توحيد الأفكار والآراء والمعتقدات عند الأمة، توحيداً جماعياً إن لم يكن توحيداً إجماعياً. وبذلك يتوحد هدف الأمة، وتتوحد عقيدتها، ووجهة نظرها في الحياة. وبهذا يكون الحزب بوتقة تصهر الأمة، فينقيها من الأدران والمفاسد التي أدت إلى انحطاطها، أو تولدت عندها أثناء انحطاطها. وهذه العملية الصهرية يتولاها الحزب في الأمة، وهي التي تسبب النهضة. وهي

عملية شاقة. ولذلك لا يقدر عليها إلا الحزب الذي يعيش بفكرتها، ويجعل حياته وقفاً عليها، ويدرك كل خطوة من خطواته.

وذلك أن الإحساس الذي يؤدي إلى فكر في الحزب، يشرق هذا الفكر في الأمة بين أفكار متعددة، فيكون واحداً منها، ويكون أول أمره أضعفها، لأنه أحدث ولادة وأجد وجوداً، ولم يتمركز بعد، ولم توجد له أجواء، ولكنه لما كان فكراً نتيجة منطق الإحساس، أي فهماً ناتجاً عن الإدراك الحسي، فإنه يوجد الإحساس الفكري أي يوجد إحساساً واضحاً نتيجة للفكر العميق، فكان -بطبعه- يصفي من ينطبع به، فيجعله مخلصاً، حتى لو أراد أن لا يكون مخلصاً لا يقدر على ذلك. ويتجسد هذا الفكر عقيدة وثقافة في المخلص، فيحدث من نفسه ثورة جامحة. وليست هذه الثورة سوى انفجار بعد احتراق في الشعور والفكر، يشيع في الدعوة التلهب والحماس والصدق، كما يشيع فيها -في نفس الوقت- المنطق والفكر، ويكون ناراً تحرق الفساد، ونوراً يضيء طريق الصلاح. وبهذا تقع الدعوة في صراع مع الأفكار الفاسدة، والعقائد المتداعية، والعادات البالية، فتحاول أن تدافع عن نفسها، ولكن دفاعها نفسه يكون احتكاكاً بالمبدأ الجديد، يزيد في قوته. ويستمر هذا الصراع حتى تتداعى جميع الأفكار والعقائد والطرق، ويبقى مبدأ الحزب وحده في الأمة، هو فكرها، وهو عقيدتها.

ومتى وَحَّدَ الحزب الأفكار والمعتقدات والآراء فقد صنع اتحاد الأمة على عين بصيرة، وصهرها ونقاها، فكانت أمة واحدة، وبذلك توجد الوحدة الصحيحة.

ثم تأتي المرحلة الثانية للحزب، وهي قيادة الأمة للقيام بالعمل الإصلاحي الانقلابي، لينهض بالأمة، ثم يحمل معها رسالة الإسلام إلى غيرها من الشعوب والأمم، لتؤدي واجبها إلى الإنسانية.

وهذا التكتل الحزبي هو حركة جماعية، ولا يمكن إلا أن يكون حركة جماعية، لأن التكتل الصحيح لا يكون حركة فردية. ولذلك كان لزاماً على القائمين على الحزب في البلاد الإسلامية أن يبحثوا البحث الدقيق عن الحركات الجماعية، وأن يفهموها فهماً عميقاً.

وفهم الحركات الجماعية التي لها قوة التأثير في عصرها، يرينا أنها لا تنشأ حين يكون الرخاء ميسوراً، والحقوق الطبيعية للإنسان محققة، والرفاهية متوفرة، وحين تكون الكفاية الشخصية هي المقياس لتولي الأمور المهمة. وهذا الفهم للحركات الجماعية، يسهل علينا أن نزن كل حركة جماعية بميزانها السوي، بدراسة البيئة التي عاشت أو تعيش فيها الحركة، والظروف التي لابستها أو تلابسها، ومدى عمل الأفراد النابهين في تسيير أمرها، وتسهيل مهمتها في القضاء على ما يعوق نجاحها أو يعرقل سيرها.

ويقاس نجاحها بقدرتها على إثارة روح الامتعاض في الناس، وحثهم على إظهار امتعاضهم كلما جد من السلطة الحاكمة أو النظام القائم ما يمس مبدأها هذا، أو يتحكم به وفق مصالح السلطة وهواها.

وفهم هذه الحركات الجماعية يقتضينا دراسة الحياة في المجتمع، ومعرفة علاقة الأمة بالحاكمين، وعلاقة هؤلاء الحاكمين بالأمة، وقوام كل منهما، وحقيقته التامة في نظر الإسلام، والآراء والأفكار والأحكام التي دعا إليها، وموازنة ما عليه المجتمع، وما تعرضت له هذه الآراء والأفكار والأحكام، من تغيير وتبديل واجتهاد، وحقيقة هذا الاجتهاد في الفروع والأصول، وهل يقره الإسلام أم لا يقره. كما يقتضينا فهمها دراسة الحالة النفسية للأمة، وهي تشاهد هذه الآراء والأفكار والأحكام الإسلامية تغيض في هذه الدنيا التي تعيش عليها، والتي يقيمها لها نظام الحياة، ونظام الحكم، بالسيف والمكر والمال.

ويقتضينا فهمها كذلك معرفة ميل الأمة نفسها بوجه عام، ونظرتها لهذه النظم التي تطبق عليها، والتي تهدد إسلامها بالزوال وترديها هي في هوة الشقاء والتعاسة، ثم معرفة ميل المفكرين في الأمة ومدى تقبلهم للنظام الفاسد الذي يطبق عليهم، وهل أثار فيهم التذمر، ومعرفة مدى تأثرهم بالإغراء والتهديد، ومدى انسياقهم مع هذا الإغراء، وخضوعهم لهذا التهديد.

ثـم معـرفة الكتـلة الحزبية نفسها، والتحقق من أنها تتمتع بالإحسـاس المـرهف، والـتفكير العميق، والإخلاص الخالص، ومن أن الإجـراءات الـتي تقـوم في المجـتمع لم تضـعف إيمانهـا بالإسـلام وشـرائعه، وأن جميـع مـا يحصل من إغراءات وتهديدات وإرهاب، ومـنح ومحـن، لم يؤثـر فيهـا مطـلقاً، ثم التحقق من أن هذه الكتلة محافظة على قيمها الذاتية تمام المحافظة، وأن منطقة إيمانها آمنة، وأن تشـبعها بالأفكـار الإسـلامية العميقـة، وتبـنيها للمصـالح العامـة، وشـعورها بالمسـؤولية - كـل ذلـك كـامل، بحيـث تجعـل المبدأ في حصـن حصـين مهما لحقها من عسف وجور وشدة وإرهاب، ثم الـتحقق مـن أن هـذه الفـئة قـد وطـدت عـزمها عـلى أن تضـطلع بالمسؤولية، مع تقديرها لجميع النتائج واستعدادها لتحملها.

وهـذا الـبحث في الحـركات الجماعيـة تاريخيـاً وواقعيـاً، يرشـد إلى حقيقـة سـير الحـزب المـبدئي، باعتـباره حـركة جماعية، والـتأكد مـن كونـه مسـتكملاً شـرائطه، سائراً في طريقه الطبيعي. حتى إذا لوحظ فيه تنكب، أو لوحظ أن الدراسات كانت تقتضي تعديلاً في الجهاز، أو مرونة في السير، أو صلابة في الكفاح، اتبعت الأسـاليب الـتي تضمن له أداء رسالته في إنهاض الأمة، وفي جعلها حاملة لهذه الرسالة لجميع الشعوب والأمم.

ويسير تكتيل الحزب تكتيلاً صحيحاً في الطريق الآتي:

١- الاهتداء إلى المبدأ من قبل شخص فائق الفكر والإحساس، فيتفاعل معه، حتى يتبلور فيه، ويصبح واضحاً لديه، وحينئذ توجد واقعياً الخلية الأولى، ولا تلبث أن تتكاثر هذه الخلية تكاثراً بطيئاً، فيوجد أشخاص آخرون، يكونون خلايا، ويتصلون ببعضهم اتصالاً كلياً بالمبدأ، فيتكون منهم الحلقة الأولى للكتلة الحزبية (قيادة الحزب) ، ولا بد أن يكون المبدأ وحده دون غيره محور التكتل بين هؤلاء الأشخاص، وأن يكون هو وحده أيضاً القوة الجاذبة لهم حوله.

٢- هذه الحلقة الأولى تكون -عادة- قليلة العدد، بطيئة الحركة في أول الأمر، لأنها مع كونها تعبر عن إحساس المجتمع الذي تعيش فيه، فإن تعبيرها يكون بألفاظ ومعان تخالف ما اعتاد المجتمع سماعه من ألفاظ ومعان، وتكون لها مفاهيم جديدة، تخالف مفاهيم المجتمع السائدة، وإن كانت تعبر عن أحاسيسه. ولذلك تكون هذه الحلقة كأنها غريبة عن المجتمع، ولا ينجذب إليها في أول الأمر من الناس إلا من كان فيه الإحساس قوياً، إلى حد أنه أوجد فيه قابلية الانجذاب إلى مغناطيس المبدأ المتجسد في الحلقة الأولى.

٣- يكون تفكير هذه الحلقة الأولى (القيادة) -عادة- عميقاً، وطريقتها في النهضة جذرية، أي تبدأ من الجذور. ولذلك ترتفع هذه الحلقة عن الواقع السيئ الذي تعيش عليه الأمة، وتحلق في الأجواء العليا، وتبصر الواقع الذي تريد نقل الأمة لتعيش عليه، أي تبصر الحياة الجديدة التي تريد نقل الأمة إليها، كما أنها تبصر الطريق الذي تسلكه لتغيير هذا الواقع. ولذلك فهي تبصر ما وراء الجدار، في حين أن أكثر المجتمع الذي تعيش فيه يبصر ما أمامه، وبحكم التصاقه بالواقع السيئ الذي هو فيه يتعذر عليه التحليق، فيصعب عليه إدراك تغيير الواقع إدراكاً صحيحاً، لأن المجتمع المنحط يكون الفكر عنده في بداءته، ويستمد صوره كلها من واقعه، ثم يقيس عليه الأشياء قياساً شمولياً مغلوطاً، ويكيف نفسه حسبه، ولذلك يجعل منافعه دائرة مع هذا الواقع.

أما الحلقة الحزبية الأولى فإنها تكون في فكرها قد تجاوزت الدور البدائي، وسارت في طريق التكامل. فتجعل الواقع موضع التفكير لتغييره حسب المبدأ، لا مصدر التفكير، بجعل المبدأ دائراً مع الواقع، ولذلك تحاول تغيير الواقع وتشكيله وإخضاعه لإرادتها، لتجعله دائراً مع المبدأ الذي تعتنقه، لا لتجعل المبدأ دائراً مع الواقع. ولذلك يكون بين المجتمع وبين الحلقة الأولى للحزب تباين في فهم وجهة النظر في الحياة، يحتاج إلى التقريب.

٤- إن فكر الحلقة الحزبية الأولى (القيادة) يستند إلى قاعدة ثابتة، وهي أن الفكر لا بد أن يتصل بالعمل، وأن الفكر والعمل لا بد أن يكونا من أجل غاية معينة يهدفان إليها. ولذلك يوجد عندها من جراء تجسد المبدأ فيها، ومن جراء استناد الفكر إلى قاعدة - يوجد من جراء ذلك جو إيماني ثابت، وهو يساعد على إخضاع الواقع وتغييره، لأن هذا الفكر لا يتشكل بشكل ما يمر به، بل يشكل ما يمر به بشكله هو، بخلاف المجتمع المنحط، فإنه لا توجد لفكره قاعدة، لأنه بمجموعه لا يعرف الغاية التي يفكر ويعمل من أجلها، وتكون الغاية عند أفراده آنية أنانية. ولذلك لا يوجد عنده جو إيماني، فيضطر لأن يتشكل هو بما يحيط به، لا أن يشكله بشكله، ومن هنا يأتي التضارب بين الحلقة الأولى للحزب وبين المجتمع الذي تعيش فيه في أول الأمر.

٥- بما أن من واجب الحلقة الحزبية الأولى (القيادة) أن توجد الجو الإيماني الذي يفرض طريقة من التفكير، فعليها أن توجد حركات مقصودة، لتنمية نفسها تنمية سريعة، ولتنقية جوها تنقية تامة، حتى تبني جسمها الحزبي بناء سليماً، وبسرعة فائقة، وأن تتحول -بتطور سريع- من حلقة حزبية إلى كتلة حزبية، ثم إلى حزب متكامل، يفرض نفسه على المجتمع، بحيث يصبح فاعلاً في المجتمع، لا منفعلاً فيه.

٦- هـذه الحـركات المقـصـودة تـتكـون بالدراسـة الواعيـة للمجـتمع وللأشـخاص وللأجواء، وبالرقابة الحذرة من أن يتسـلل إلى كيـان الحـزب عنصـر فاسـد، ومـن أن يحصل الخطأ في تـركيب جهـاز من أجهزة الحزب التي يكون التكتل حسبها، حتى لا يميـل بـه إلى وجهـة غـير وجهـته الصـحيحة، وحـتى لا ينشـطر الحزب على نفسه.

٧- يجـب أن تكـون العقيـدة الراسـخة الثابـتة، والـثقافة الحـزبية الناضـجة هـي الـرابط بـين أعضاء الحزب، وأن تكون هي القـانون الذي يسير جماعة الحزب، لا القانون الإداري المسطر على الـورق. وطـريقة تقويـة هذه العقيدة والثقافة هي الدراسة والفكر، ليـتكون العقـل تكويناً خاصاً، وليوجد الفكر المتصل بالشعور، ولا بـد مـن بقـاء الجـو الإيمـاني مخيماً على الحزب جماعياً، حتى يكون الجـامع للحزب شيئين اثنين هما القلب، والعقل. ولذلك لا بد من الإيمـان بالمـبدأ حتى يبدأ القلب جامعاً بين أفراد الحزب، ثم دراسة المبدأ دراسة عميقة، وحفظها واستظهارها وفهمها، ليتكون الرابط الـثاني وهـو العقـل. وبذلـك يعـد الحزب إعداداً صحيحاً، وتكون رابطته متينة متانة تمكنه من الثبات أمام جميع الزعازع.

٨- تشـبه قيـادة الحـزب (الحـلقة الأولى للحزب) الموتور الصناعي من جهة، وتخالفه من جهة أخرى. ووجه شبهها فيه هو:

أن الموتور الصناعي للغاز مثلاً، له طاقة حرارة، تتولد من الشعلة والبنزين في الحركة الموتورية. وهذه الطاقة الحرارية تنتج ضغطاً في الهواء. وهذا الضغط يدفع الذراع، وهو المحرك، وهو الذي يفرض حركته على القطع الأخرى، فتدور الآلة. وعليه فإن وجود الشعلة والبنزين والحركة الموتورية هو الأصل، لأنه بتوليده لطاقة الحرارة ينتج ضغطاً، وهذا الضغط يفرض حركته على باقي القطع، ويدير الموتور. فإذا وقفت حركة الموتور وقفت جميع القطع. وإذن لا بد من وجود الشعلة والبنزين والحركة الموتورية حتى يدور الموتور، ويدير جميع الآلة. وكذلك القيادة للحزب (الحلقة الأولى للحزب) فإن الفكرة فيها بمقام الشعلة، والإحساس في الأشخاص الواعين في القيادة بمنزلة البنزين، والإنسان الذي يتأثر إحساسه بالفكرة هو الحركة الموتورية. وعليه فالفكرة حين تتصل بالإحساس في الإنسان توجد طاقة الحرارة، فتدفع القيادة إلى الحركة. وحركتها هذه تفرض على سائر قطع الحزب، من أفراد، وحلقات، ولجان محلية، وغير ذلك، فتتأثر بحرارتها، فتتحرك، وتدور جميعها، دوران الآلة. وهنا يبدأ سير الحزب بالحركة، فيأخذ دور النمو في تشكيله.

وعليه فلا بد من انبعاث طاقة الحرارة من القيادة لسائر أجزاء الحزب حتى تدور، كما أنه لا بد من حركة الموتور حتى

تـدور الآلـة. وهـذا وجـه الشـبه بـين الموتـور الصـناعي وبين قيادة الحـزب. وعـلى ذلـك يجـب أن يلاحـظ قادة الحزب هذه الناحية، ويوالـوا اتصـالاتهم وحـركاتهم بـباقي أجزاء الحزب، لتؤثر حرارة القيادة في الجميع. فإذا اتصلوا عدة مرات، ورأوا أن باقي الأعضاء والـلجان لم تتحرك إلا إذا حركوها، فلا ييأسوا، وليعلموا أن ذلك طبيعي، لأن الآلة لا تدور إلا إذا دار الموتور، وبعثت الحرارة منه.

إلا أن القيـادة (الحـلقة الأولى للحزب) لا يكون تحريكها مؤثـراً بفرض الحركة على الحزب، كما يفرض المحرك حركته على باقي القطع في الموتور الصناعي، بل يكون تحريكها كذلك في أول الأمـر فحسـب، أمـا بعد سير الحزب فلا يكون كذلك. ومن هذه الجهـة تخالف القيادة (الحلقة الأولى للحزب) الموتور الصناعي، فإن الموتـور الصـناعي يظل دائماً المحرك للآلة، وأما القيادة فإنها موتور اجـتماعي، وليسـت موتـوراً صـناعياً، وأعضـاء الحـزب وحـلقاته ولجانـه المحـلية هـم مـن بـني الإنسان، لا من الحديد، وفيهم الحياة، ويـتأثرون بحرارة القيادة، أي يتأثرون بحرارة المبدأ الذي يتجسد في القيادة (الحلقة الأولى للحزب) ، ولهذا فإنهم بعد تفهمهم للفكرة، واتصـالهم بحـرارة القيـادة الحـزبية، يصـبحون جـزءاً مـن الموتـور، ويصـبح حينـئذ مجـرد حـركة القيـادة من جراء طاقة الحرارة يبعث الحركة في الحزب كله بعثاً طبيعياً، لأنها – وهي موتور اجتماعي –

تكون كلا فكرياً شائعاً في جميع الحزب. وحينئذ لا تبقى القيادة وحدها هي التي تحمل الحركة الموتورية، بل - بنموها وتكامل تشكيل الحزب - يكون الحزب كله حاملاً للحركة الموتورية. وعلى ذلك فلا يحتاج سير الحزب إلى حركة القيادة، ولا إلى بعث حرارتها، بل يسير المبدأ في أعضاء الحزب، وتسير حلقاته ولجانه المحلية، سيراً آلياً، دون حاجة إلى حركة القيادة، لأن حرارة كل جزء منبعثة منه، ومن الكل الفكري الشائع في الحزب، والمتصل بهذه الأجزاء اتصالاً طبيعياً.

٩ - يسير الحزب المبدئي في ثلاث مراحل، حتى يبدأ تطبيق مبدئه في مجتمعه:

أولاً: مرحلة الدراسة والتعلم لإيجاد الثقافة الحزبية.

ثانياً: مرحلة التفاعل مع المجتمع الذي يعيش فيه، حتى يصبح المبدأ عرفاً عاماً ناتجاً عن وعي، وتعتبره الجماعة كلها مبدأها، حتى تدافع عنه جماعياً، وفي هذه المرحلة يبدأ الكفاح بين الأمة وبين من يقفون حائلاً دون تطبيق المبدأ من الاستعمار ومن يضعهم أمامه من الفئات الحاكمة والظلاميين والمضبوعين بالثقافة الأجنبية، لأنها تعتبر المبدأ مبدأها، والحزب قائداً لها.

ثالثاً: مرحلة تسلم زمام الحكم عن طريق الأمة تسلماً كاملاً، حتى يتخذ الحكم طريقة لتطبيق المبدأ على الأمة. ومن

هـذه المرحلة تبدأ الناحية العملية في الحزب في معترك الحياة، وتظل ناحيـة الدعوة للمبدأ العمل الأصلي للدولة والحزب، لأن المبدأ هو الرسالة التي تحملها الأمة والدولة.

١٠ – أمـا المرحـلة الأولى فهـي المرحلة التأسيسية، وهي اعتبار جميع أفراد الأمة سواء في أنهم خالون من كل ثقافة صحيحة، والـبدء بتـثقيف مـن يـريدون أن يكونوا أعضاء في الحزب بثقافته، واعتـبار المجـتمع كله مدرسة للحزب، حتى يخرج الحزب في أقصر مدة الفئة التي تكون قادرة على الاتصال بالجماعة للتفاعل معها.

عـلى أنه ينبغي أن يعلم أن هذا التثقيف ليس تعليماً، وأنه يختـلف عـن المدرسـة اخـتلافاً كلياً، ولذلك لا بد أن تكون الثقافة للحـلقات سائرة على اعتبار أن المبدأ هو المعلم، وأن العلم والثقافة الـتي تؤخذ إنما يقتصر فيها على المبدأ، وعلى ما يلزم لخوض معترك الحياة، وأن تؤخذ للعمل بها حالاً في معترك الحياة.

ولذلـك لا بـد مـن أن تكون الثقافة عملية، أي أن تؤخذ لـلعمل بها في الحياة، ولا بد من أن يوضع حائل كثيف بين الذهن وبـين الـناحية العـلمية، حـتى لا تـتجه الـثقافة الحـزبية اتجاه الثقافة المدرسية العلمي.

١١ – الحـزب هـو تكـتل يقـوم عـلى فكرة وطريقة، أي عـلى مـبدأ آمـن أفـراده بـه. ويشـرف عـلى فكـر المجـتمع وحسـه

ليسيرهما في حركات تصاعدية. ويحول بين المجتمع وبين الانتكاس في الفكر والحس. وهو يقوم على تثقيف الأمة ودفعها إلى معترك الحياة العالمية، فهو المثقِّف الحقيقي، ولا تغني عنه المدارس مهما تعددت وكثرت وشملت.

وهناك فرق بين الحزب والمدرسة لا بد من إدراكه، وهذا الفرق واضح في نقاط عدة منها:

أ – إن المدرسة مهما كان برنامجها صحيحاً، لا تضمن إنهاض الأمة دون أن يكون هنالك حزب يقوم في المجتمع كمثقِّفٍ له، لأن المدرسة من طبيعتها مهما تحررت لا بد من أن تكون رتيبة، فهي تقوم على شكل خاص، وتتخذ صفة خاصة، وبهذا تفقد القدرة على التشكل تبعاً لتشكل الوقائع. وإذا أريد لها أن تتشكل، يحتاج تشكلها إلى عملية معقدة، وزمن معين، حتى يحدث التكيف، وإعدادها يكون على أساس ثابت لا يتشكل.

ب – إن الحزب إذا كان قائماً على برنامج صحيح يكون فيه ما يلي:

١ – الحيوية، فهو ينمو.

٢ – التطور، فهو ينتقل من حال إلى حال.

٣ – الحركة، فهو ينتقل في كل ناحية من نواحي المجتمع، وفي كل جزء من أجزاء البلاد.

٤- الحس، فهو يحس ويشعر بكل ما يحصل في المجتمع، ويؤثر فيه.

ويكون إعداده على أساس تشكل الحياة والمشاعر. ففيه تطور دائم، وفيه تغير مستمر، ولا يسير على طريقة رتيبة، لأنه يسير مع الحياة وأشكالها، ليشكلها بجوه الإيماني، ويغير الواقع ويكيفه حسب المبدأ.

جـ - المدرسة تقوم على تثقيف الفرد وتهذيبه وتعليمه باعتباره فرداً معيناً. وهي بالرغم من كونها جماعة صغيرة، إلا أنها فردية من ناحية تعليمية. ولذلك تكون نتائجها فردية لا جماعية. ولو فرضنا أن مدينة سكانها عشرة آلاف نسمة، فيها مدارس تضم ألف تلميذ، فإنها لا تستطيع أن تحدث أي نهضة جماعية في هذه المدينة.

د- الحزب يقوم على تربية الجماعة وتثقيفها بوصفها جماعة واحدة، بغض النظر عن أفرادها، وهو لا ينظر إلى هؤلاء الأفراد الذين فيها باعتبارهم أفراداً معينين، وإنما ينظر إليهم باعتبارهم أجزاء الجماعة، فهو يثقفهم جماعياً ليصلحوا لجزئية الجماعة لا لفرديتهم. ولذلك كانت نتائج الحزب جماعية لا فردية. فلو فرضنا أن جماعة في قطر سكانه مليون نسمة، وفيه حزب عدد أعضائه مائة شخص، فإنه يحدث في هذا القطر نهضة

تعجز عنها المدرسة مهما بذلت من جهد وأمضت من زمن وخرجت من تلاميذ.

هـ - تقوم المدرسة على تهيئة الفرد ليؤثر في الجماعة التي يعيش فيها، وهو لا يستطيع أن يؤثر إلا جزئياً، لأنه يحتل جزءاً شعورياً ضعيف الأثر في إيقاظ الفكر.

و - يقوم الحزب على تهيئة الجماعة لتؤثر في الفرد، وهي تستطيع أن تؤثر كلياً، لأن شعورها قوي، موقظ، قادر على إيقاظ الفكر. ولذلك يكون أثرها في الأفراد قوياً، وتبعث فيهم النهضة بأقل جهد وأقصر زمن، إذ إن الذي يوقظ الفكر هو الشعور وبتفاعلهما تحصل الحركة للنهضة.

ويتلخص الفرق بين الحزب والمدرسة في ثلاث نقاط:

١ - إن المدرسة تكون رتيبة غير قادرة على التشكل، في حين أن الحزب يكون متطوراً غير رتيب، وقادراً على التشكل في الحياة فهو يشكلها بجوه الإيماني.

٢ - إن المدرسة تثقف الفرد ليؤثر في الجماعة، فتكون نتائجها فردية، في حين أن الحزب يثقف الجماعة، لتؤثر في الفرد فتكون نتائجها جماعية.

٣ - إن المدرسة تهيئ الجزء الشعوري في الفرد، ليؤثر في مشاعر الجماعة، فلا يستطيع التأثير فيها، ويعجز عن إيقاظ فكرها،

في حين أن الحزب يهيئ الكل الشعوري في الجماعة، ليؤثر في مشاعر الأفراد، فيستطيع التأثير فيهم، ويكون قادراً على أن يوقظ أفكارهم إيقاظاً تاماً.

١٢ - في هذه المرحلة لا بد من دوام إدراك أن المجتمع بأكمله هو المدرسة الكبرى للحزب، مع دوام إدراك الفرق الشاسع بين المدرسة وبين الحزب في حلقاته الثقافية.

أما إدراك أن المجتمع بأكمله مدرسة الحزب، فهو لأن وظيفة الحزب في هذه الفترة هي بعث العقائد الصادقة، وإيجاد المفاهيم الصحيحة. وهذا لا يتأتى إلا بعملية تثقيفية يكون مبدأ الحزب هو المعلم، وثقافته هي المادة التي تدرس، وهذا المبدأ وهذه الثقافة يتمثلان فيمن تجسد فيهم المبدأ، فهم الأستاذ المباشر في المجتمع، وتكون اللجان المحلية وحلقاتها صفوفه، ويكون المجتمع كله هو المدرسة. وهذه العملية التثقيفية تقتضي ممن يكونون أعضاء في الحزب، ويتبنون مفاهيمه، دراسة عميقة، وفهماً صحيحاً، ومذاكرة لثقافته الحزبية في كل وقت، واستظهاراً لدستوره، وللأحكام المهمة، والقواعد العامة التي يتبناها. وذلك يحتاج إلى عملية تثقيفية. ومن هنا كان لا بد من الحرص على هذه الناحية مع كل من يدخل في الحزب، بغض النظر عما إذا كان مثقفاً ثقافة جامعية أو ابتدائية أو فيه استعداد للتثقف. وكل

تساهل في هذه الثقافة مع أي فرد يبقي هذا الفرد خارج نطاق الحزب، ولو انتسب إليه، وربما نتج عن ذلك ضرر في الجهاز العام.

ولا بد من أن يوضع حاجز كثيف بين العمل وبين الحزب في هذه المرحلة، قبل أن يوجد عنده الأشخاص المثقفون ثقافة حزبية، ولهذا كانت هذه المرحلة مرحلة ثقافية ليس غير.

وأما إدراك أن هنالك فرقا بين المدرسة وبين الحزب في الثقافة فذلك لئلا تنقلب الثقافة الحزبية إلى ثقافة مدرسية، فيفقد الحزب فعاليته. ولذلك لا بد من أن يوضع حاجز كثيف بين المنتمي إلى الحزب وبين الناحية العلمية في الثقافة الحزبية، وأن يكون ملاحظاً أن الثقافة الحزبية هي لتغيير المفاهيم، وللعمل في معترك الحياة، ولحمل القيادة الفكرية في الأمة. ولا يجوز أن يندفع صاحبها في الناحية العلمية. وإذا كانت لديه حاجة علمية فمحلها المدرسة وليس الحزب. ومن الخطر الاندفاع مع الثقافة نحو الناحية العلمية، لأنها تسلب خاصية العمل، وتؤخر الانتقال إلى المرحلة الثانية من مراحله.

١٣ - المرحلة الثانية هي مرحلة التفاعل مع الأمة، وهي التي يصحبها الكفاح. وتعتبر هذه المرحلة دقيقة، والنجاح فيها دليل على صحة تكوين الحزب. والإخفاق فيها دليل على أن فيه خللاً يجب إصلاحه. وهي مبنية على المرحلة التي قبلها. ولذلك

كـان الـنجاح في المرحـلة الأولى شـرطاً أساسياً للنجاح في المرحلة الـثانية. إلا أن مجـرد الـنجاح في المرحـلة الأولى ثقافيـاً ليـس كافيـاً وحـده للـنجاح في هذه المرحلة، بل لا بد أن يكون النجاح الثقافي معـروفاً عـند الـناس، أي أن يعـرف الـناس أن هـناك دعـوة، وأن يعـرفوا عن العضو أنه يحمل دعوة، كما أنه لا بد أن تكون الروح الجماعيـة قـد تكونـت أثـناء الـتكوين الثقافي في الحلقات، واتصال الأعضـاء في المجـتمع الذي يعيشون فيه، ومحاولتهم التأثير فيه، حتى إذا انتقـلوا للمرحـلة الـثانية كـان الاسـتعداد الجمـاعي موجـوداً. ولذلك يسهل عليهم التفاعل مع الأمة.

١٤ – إن عضـو الحزب لا ينتقل من دور الثقافة إلى دور الـتفاعل إلا بعـد أن يكـون قـد نضـج ثقافيـاً، نضـجاً جعـل مـنه شخصـية إسـلامية، بـتجاوب نفسـيته مع عقليته. قال عليه الصلاة والسـلام: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به» ، وأن يعـرف الـناس عـنه أنه يحمل دعوة إسلامية، وأن تكون الميول الجماعيـة قـد قويـت فيـه وظهـرت عـليه، بوجـوده في الحـلقات، واتصـاله بالمجـتمع، بحيـث تكـون قـد قـلعت منه العزلة. لأن العزلة مزيج من الجبن واليأس، لا بد من قلعها من الأفراد والمجتمع.

١٥ – إن الحـزب ينـتقل من دور الثقافة إلى دور التفاعل انـتقالاً طبيعياً، بحيث إذا أراد أن ينتقل قبل الأوان لا يقدر، وذلك

أن دور الثقافة تستكمل فيه نقطة الابتداء، إذ الثقافة تجعل المبدأ يتجسد في أشخاص، وتجعل المجتمع يحس بالدعوة وبالمبدأ إحساساً واضحاً. ومتى تم هذا التجسيد للمبدأ في الأشخاص، أي غرسه في نفوسهم، وتم معه الإحساس في المجتمع على المبدأ، تكون قد اجتازت الدعوة نقطة الابتداء، وصار لا بد أن تنتقل إلى نقطة الانطلاق. وحتى يبدأ الحزب السير في نقطة الانطلاق، لا بد أن يبدأ بمخاطبة الأمة. ولأجل أن يبدأ بمخاطبتها يجب أن يبدأ بمحاولة مخاطبتها أولاً، حتى إذا نجحت محاولته هذه، تحول إلى المخاطبة مباشرة. ومحاولة المخاطبة إنما تكون بالثقافة المركزة في الحلقات، وبالثقافة الجماعية للناس في كل مكان مستطاع، وفي كشف خطط الاستعمار، وفي تبني مصالح الأمة. فإذا استطاع أن ينجح في هذه الأشياء الأربعة معاً تحول إلى مخاطبة الأمة، وانتقل إلى نقطة الانطلاق انتقالاً طبيعياً. وكان انتقاله هذا إلى نقطة الانطلاق هو الذي ينقله نقلا طبيعياً من المرحلة الأولى، التي هي دور الثقافة، إلى المرحلة الثانية، التي هي دور التفاعل، ويجعله يبدأ التفاعل مع الأمة في أوانه بدءًا طبيعياً.

١٦ – إن هذا التفاعل مع الأمة ضروري لنجاح الحزب في مهمته، لأنه مهما كثر أعضاء الحزب في الأمة، و لم يتفاعلوا معها لا يستطيعون أن يقوموا بعمل وحدهم، مهما كانت قوتهم،

إلا إذا سارت الأمة معهم. ولا يستطيعون أن يسوقوا الأمة معهم إلى العمل، ولا تسير معهم إلا إذا تفاعلوا معها، ونجحوا في هذا التفاعل. وليس معنى تفاعلهم مع الأمة هو أن يستطيعوا جمع الناس حولهم، بل المراد من التفاعل هو إفهام الأمة مبدأ الحزب، ليكون مبدأها، لأن أصل المبدأ - وهو الإسلام - موجود في الأمة، إذ إن أحاسيس الأمة تحولت إلى فكر، تبلور في الفئة المتميزة، التي يتكون الحزب منها. وكانت قاعدة هذه الأحاسيس (وهي الفكر والعمل من أجل غاية) التعبير الحقيقي للمبدأ. ولذلك يكون المبدأ (أي الإسلام) هو إحساس الأمة الداخلي، ويكون الحزب معبراً عن هذا الإحساس. فإذا كان فصيح التعبير، واضح اللغة، صادق اللهجة، فهمت الأمة المبدأ سريعاً، وتفاعلت مع الحزب، واعتبرت الأمة بمجموعها هي الحزب. والفئة المتميزة تحمل قيادة الحركة بالتكتل الحزبي، تلك الحركة التي تسير بها الأمة بقيادة الحزب نحو المرحلة الثالثة، وهي تطبيق المبدأ تطبيقاً انقلابياً، عن طريق الحكم الذي تتولاه هذه الكتلة الحزبية، باعتباره الطريقة الوحيدة لتنفيذ الفكرة، أي باعتباره جزءاً من المبدأ.

إلا أن هنالك صعوبات عديدة تقف في وجه هذا التفاعل، فلا بد من معرفتها، ومعرفة طبيعتها، للعمل على التغلب عليها. وهذه الصعوبات كثيرة أهمها ما يلي:

أ – تناقض المبدأ مع النظام الذي يطبق في المجتمع.

إن مبدأ الحزب هو نظام جديد للحياة بالنسبة للمجتمع الحاضر. وهو يناقض النظام الذي يطبق على هذا المجتمع والذي تحكم الناس به الفئة الحاكمة. ولذلك تجد في هذا المبدأ خطراً عليها، وعلى كيانها. ولا بد أن تقف في وجهه وتحاربه، بمختلف الوسائل: بالدعاية ضده، ومطاردة حملة الدعوة، واستعمال الوسائل المادية. ولهذا كان على حَمَلَة المبدأ –وهم يعملون للتفاعل مع الأمة بالدعوة لمبدئهم– أن يعتصموا من الأذى بكل ما يستطيعون، وأن يجابهوا الدعايات المضللة، بشرح دعوتهم، وأن يتحملوا كل مشقة في هذا السبيل.

ب – ومن الصعوبات اختلاف الثقافة.

تكون في المجتمع ثقافات مختلفة، وتكون في الأمة أفكار متباينة، إلا أنه يكون لها إحساس واحد. وتكون الثقافات المتعددة، ولا سيما الثقافات الاستعمارية، تعبيراً معكوساً عن هذه الأحاسيس، في حين أن ثقافة المبدأ، أي الثقافة الإسلامية، تكون تعبيراً صادقاً عن أحاسيس الأمة. غير أن الرأي العام الثقافي في المجتمع والمنهاج الثقافي في المدارس والمعاهد، وسائر الأمكنة الثقافية، يكون سائراً مع الثقافة الأجنبية. وكذلك تكون سائر الحركات السياسية والثقافية سائرة مع الثقافة الأجنبية. ولهذا لا بد

للحزب في ثقافته من الدخول في دور من الكفاح مع الثقافات الأخرى، والأفكار الأخرى، حتى يظهر للأمة التعبير الصحيح عن أحاسيسها وشعورها، فتسير معه. ومن هنا كان لا بد من أن يكون في هذا الدور تصادم بين الحزب في ثقافته وفكره، وبين غيره من الثقافات والأفكار الأخرى. وهذا تصادم بين أبناء الأمة، ولذلك لا يأخذ دور الجدل العقيم، بل تسير جماعة الحزب على طريقة رسم الخط المستقيم عند الخط الأعوج. ولا يدخلون في جدل عقيم مطلقاً، لئلا يؤدي إلى الأنانية التي تعمي وتصم عن الحقيقة، بل تشرح أفكار الحزب، وتبين ما في الأفكار الأخرى من زيف، وما في الثقافات الأخرى من باطل، وما في نتائجها من أخطار. وحينئذ تنصرف الأمة عنها، وتتجه نحو ثقافة الحزب وفكره، بل ينصرف عنها أيضاً أصحابها، بعد أن يظهر لهم زيفها، إذا كانوا من المخلصين الواعين النزيهين. إلا أن هذه العملية من أشق العمليات على الحزب. ولذلك كان إحداث التفاعل مع الأمة في المكان الذي تكثر فيه الثقافة الأجنبية أكثر صعوبة من الأمكنة التي تقل فيها هذه الثقافة، وكانت قابلية النهضة في الأمكنة التي تقل فيها نسبة المثقفين ثقافة أجنبية أكثر من الأمكنة التي ترتفع فيها هذه النسبة. ولذلك كان على الحزب أن يكون واعياً على الجماعة التي يعمل للتفاعل معها، ليسير في الطريق المناسبة لها.

جـ – ومن الصعوبات وجود الواقعيين في الأمة.

وذلك أنه يوجد من جراء الثقافة الأجنبية، والتسميم الأجنبي، ومن جراء الجهل، فئتان تمثلان الواقعية في الأمة.

أما الفئة الأولى فهي الفئة الواقعية، التي تدعو إلى الواقع، وإلى الرضا بالواقع، والتسليم به، كأمر حتمي، لأنها تتخذ الواقع مصدر تفكيرها وتأخذ منه حلول مشاكلها. وطريق التغلب على صعوبتها هو محاولة التعمق معها في البحث، حتى ترى وتدرك أن الواقع إنما يتخذ موضع التفكير لتغييره، وبذلك يمكن أن ترجع عن فكرها.

وأما الفئة الواقعية الثانية فهي فئة الظلاميين التي تأبى أن تعيش في النور، لأنها ألفت الحياة في الظلام وتعودت التفاهة والسطحية، وأصيبت بمرض الكسل الجسمي والكسل العقلي وجمدت على القديم الذي وجدت عليه آباءها لمجرد كونه قديماً، ولذلك فهي واقعية حقيقة، لأنها من جنس الواقع وهي جامدة فكراً. ولذلك كانت في حاجة إلى معاناة أكثر. وطريق التغلب على صعوبتها هو محاولة تثقيفها، والاجتهاد في تصحيح مفاهيمها.

د – ومن الصعوبات التي تقف في وجه الدعوة ارتباط الناس بمصالحهم. وذلك أن الإنسان يرتبط بمصالحه الشخصية، وأعماله اليومية، ويرتبط في نفس الوقت بالمبدأ. وقد يبدو أن

هـذه المصـالح تـتعارض مـع الدعـوة للمـبدأ. ولذلك يحاول التوفيق بيـنهـما. وللتغـلب عـلى هـذه الصـعوبة، يجب على كل من يعتنق المـبدأ أن يجعـل الدعـوة والحـزب مركـز الدائـرة الذي تدور حوله مصـالحه الشخصـية، فـلا يجـوز أن يشتغل في أي عمل يتناقض مع الدعــوة، ولا في أي عمـل ينسـيه الدعـوة ويعوقـه عـنها. وبذلـك يكـون قـد نقـل الدعـوة مـن دورانهـا حـول مصـالحه إلى دوران مصالحه حول محورها.

هـ - ومـن الصعوبات التي تقف في وجه الدعوة صعوبة التضـحية بشـؤون الحيـاة الدنيـا مـن مال وتجارة ونحوهما في سبيل الإسـلام وحمـل دعوتـه. وللتغـلب على هذه الصعوبة يذكر المؤمن بـأن الله اشـترى مـن المؤمـنين أنفسـهم وأموالهـم بـأن لهـم الجـنة. ويكـتفى بهـذا الـتذكير ويـترك له الخيار في التضحية بهذه الشؤون ولا يستكره على شيء. كتب عليه الصلاة والسلام كتاباً لعبد الله بـن جحـش حـين بعـثه على رأس سرية ليترصد قريشاً في نخلة بين مكـة والطـائف، وقـد جـاء في ذلك الكتاب: «**ولا تكرهن أحداً من أصحابك على المسير معك وامض لأمري فيمن تبعك**».

و - وقـد يتـبادر أن مـن الصعوبات الاختلاف المدني في المجـتمعات، وذلـك أن الأمـة تكـون فيها أوساط المدن غير أوساط القـرى، وغـير أوسـاط الـبدو، وتكـون المدنيـة في المدينـة غيرها في

القـرية، وهي في القرية غيرها في مضارب البدو والخيم. ولذلك قد يوحـــي هـــذا الاخـــتلاف في الأشـــكال المدنيـــة لـــلحزب فكـــرة الاخـتلاف في التـثقيف، أو في الـتوجيه المـبدئي. وهـذا مـن أخطر الأشـــياء لأن الأمـــة مهـــمـــا اختـلـفـت فيها الأشـكال المدنيـة هـي أمـة واحـدة، إحساسـها واحـد، ومـبدؤها واحـد، ولذلـك تكون الدعـوة فيهـا واحـدة، لا فـرق بـين مدينـة وقـرية، ويكـون العمل للتفاعل معها واحداً.

١٧ – يـــتعرض الحـــزب في هـــذه المرحـــلة (مرحـــلة الـــتفاعل مـــع الأمـــة) إلى خطـــرين: خطـــر مـــبدئي (أي عـــلى المبدأ)، وخطر طبقي.

أمـا الخطـر المـبدئي فيـتأتى مـن تيـار الجماعة، والرغبة في استجابة طلباتها الآنية الملحة، ويتأتى من تغلب الرواسب الموجودة في آراء جماعة على الفكرة الحزبية.

وذلـك أن الحـزب حـين يخـوض غمـار الحياة في المجتمع، يتصـل بـالجمهور للـتفاعل معـه، ولقيادته، وفي الوقت الذي يكون فيـه الحـزب مـزوداً بمـبدئه، يكـون الجمهـور قـد اجـتمعت فيـه متناقضـات مـن أفكـار رجعيـة قديمـة، ووراثـات عن الجيل الغابر، ومـن أفكـار أجنـبية خطـرة، وتقـليد للكافر المستعمر. فحين يقوم الحـزب بعملية التفاعل مع الجمهور، يزوده بآراء الحزب وأفكاره،

ويسعى جاهداً لتصحيح مفاهيمه، ولبعث العقيدة الإسلامية فيه، ولإيجاد الأجواء الصادقة، والعرف العام الصالح، بمفاهيم الحزب. وهذا يحتاج إلى الدعوة، وإلى الدعاية، حتى يجمع الأمة حوله على أساس المبدأ، بصورة تقوي في الأمة الإيمان بالمبدأ، وتبعث فيها الثقة بمفاهيم الحزب، والاحترام والتقدير له، وتحملها على الاستعداد للطاعة وللعمل. وحينئذ يكون واجب الحزب الإكثار من شبابه المؤمنين الموثوق بهم بين الأمة، ليظلوا قابضين على زمامها، كالضباط في الجيش. فإذا نجح الحزب بهذه المرحلة من التفاعل، قاد الأمة إلى الغاية التي يريدها، ضمن حدود المبدأ، وأمن خروج القطار عن الخط.

أما إذا قاد الحزب الجمهور قبل أن يكتمل التفاعل معه، وقبل أن يوجد الوعي العام عند الأمة، فإن قيادته تكون لا بأحكام المبدأ وأفكاره، بل بتشخيص ما يجيش في نفس الأمة، وبإثارة عاطفتها، وتصوير مطالبها قريبة في متناول يدها.

إلا أن هذا الجمهور لا تنعدم منه في هذه الحالة مشاعره الأولى كالوطنية والقومية والروحية الكهنوتية، وتكون الحالات الجماعية مثيرة لها، فتظهر حينئذ فيه العنعنات التافهة كالطائفية والمذهبية، والأفكار القديمة كالاستقلال والحرية، والنعرات الفاسدة كالعنصرية والعائلية، فيبدأ التناقض بينه وبين الحزب، لأنه

يفرض لنفسه مطالب لا تتفق مع المبدأ، وينادي بغايات آنية مضرة للأمة، ويتحمس لهذه المطالب، ويزداد هياجه لتحقيقها، وتظهر فيه نعرات متعددة. وفي هذه الحال يكون موقف الحزب بين نارين: إحداهما التعرض لغضب الأمة ونقمتها، وهدم ما بناه من السيطرة على الجماعة. والأخرى التعرض للانحياز عن مبدئه والتساهل فيه، وكلا الشيئين فيه خطر عليه. ولذلك كان على رجال الحزب إذا تعارض الأمر بين الجمهور والمبدأ أن يتمسكوا بالمبدأ، ولو تعرضوا لنقمة الأمة، لأنها نقمة مؤقتة. وثباتهم على المبدأ سيعيد لهم ثقة الأمة. وليحذروا من مخالفة المبدأ والحيد عن جوهره قيد شعرة، لأنه هو حياة الحزب، وهو الذي يضمن له البقاء. ولاتقاء مثل هذه المواقف الحرجة، ولدفع مثل هذا الخطر، على الحزب أن يجتهد في سقي الأمة بمبدئه، والمحافظة على وضوح أفكار الحزب ومفاهيمه، والعمل على بقاء أجوائها مسيطرة على الأمة. ويُسَهِّلُ ذلك العنايةُ بفترة التثقيف عناية فائقة، والاهتمامُ بالثقافة الجماعية اهتماماً زائداً، والحرصُ على كشف خطط الاستعمار كشفاً دقيقاً، ودوامُ السهر على الأمة ومصالحها، والانصهارُ بالمبدأ والحزب انصهاراً تاماً، ودوامُ التنقيب في أفكار الحزب ومفاهيمه، لبقائها صافية، وبذلُ أقصى جهد مستطاع في ذلك كله، مهما كلف هذا من جهد وعناء.

وأما الخطر الطبقي فإنه يتسرب إلى رجال الحزب، لا إلى الأمة. وذلك أنه حين يكون الحزب يمثل الأمة أو أكثريتها، تكون له مكانة مرموقة، ومنزلة موقرة، وإكبار تام من قبل الأمة والخاصة من الناس. وهذه قد تبعث في النفس غروراً، فيرى رجال الحزب أنهم أعلى من الأمة، وأن مهمتهم القيادة، ومهمة الأمة أن تكون مقودة. وحينئذ يترفعون على أفراد الأمة، أو على بعضهم، دون أن يحسبوا لذلك حساباً. وإذا تكرر ذلك صارت الأمة تشعر بأن الحزب طبقة أخرى غيرها، وصار الحزب يشعر كذلك بالطبقية. وهذا الشعور هو أول طريق انهيار الحزب، لأنه يضعف حرص الحزب على ثقة البسطاء من الجمهور، ويضعف ثقة الجمهور بالحزب، وحينئذ تبدأ الأمة تنصرف عن الحزب. ومتى انصرفت الأمة عن الحزب فقد انهار، واحتاج إلى بذل جهد مضاعف، حتى تعود له هذه الثقة. ولذلك كان لزاماً على رجال الحزب أن يكونوا كأفراد الأمة البسطاء، وأن لا يشعروا بأنفسهم إلا أنهم خدمة للأمة، وأن وظيفتهم الحزبية هي خدمة الأمة، لأن ذلك يوجد فيهم المناعة، وينفعهم لا بدوام ثقة الجمهور فحسب، بل ينفعهم أيضاً في المرحلة الثالثة حين يتولون الحكم لتنفيذ

المبدأ. فيظلون – وهم حكام – خدمة للأمة، حتى يتسنى لهم تنفيذ المبدأ.

١٨ – المرحلة الثالثة، هي مرحلة الوصول إلى الحكم.

إن الحزب يصل إلى الحكم عن طريق الأمة وأعمال طلب النُّصْرة، وينفذ المبدأ دفعة واحدة، وذلك ما يسمى بالطريقة الانقلابية. وهذه الطريقة لا تقبل الاشتراك في الحكم مجزءاً، بل تأخذ الحكم كله، وتتخذه طريقة لتطبيق المبدأ، وليس غاية. وتنفذ المبدأ الإسلامي تنفيذاً انقلابياً، ولا تقبل طريقة التدريج مهما كانت الظروف.

ومتى طبقت المبدأ تطبيقاً كاملاً شاملاً كان عليها أن تحمل الدعوة الإسلامية، فتجعل في ميزانية الدولة باباً خاصاً للدعوة وللدعاية، وتتولى الإشراف على هذه الدعوة من ناحية دولية أو ناحية حزبية حسب مقتضيات الظروف. وبالرغم من وصول الحزب إلى الحكم فإنه يبقى حزباً سائراً، ويبقى جهازه قائماً، سواء أكان أعضاؤه في كراسي الحكم أم لم يكونوا. ويعتبر الحكم أول خطوة عملية لتنفيذ مبدأ الحزب في الدولة، والسعي لتنفيذه في كل جزء من أجزاء العالم.

هذه هي الخطوات التي يسير فيها الحزب في معترك الحياة، لينقل الفكرة إلى الدور العملي. وبعبارة أخرى لينقل المبدأ

إلى معترك الحياة باستئناف الحياة الإسلامية، ولينهض بالمجتمع، ويحمل الدعوة إلى العالم. وحينئذ يبدأ الحزب الدور العملي، وهو الدور الذي وجد من أجله. وعلى ذلك فالحزب هو الضمانة الحقيقية لإقامة الدولة الإسلامية ولبقائها ولتطبيق الإسلام، وإحسان تطبيقه، واستمرار هذا التطبيق، وحمل الدعوة الإسلامية للعالم، لأنه بعد أن يقيم الدولة، يكون رقيباً عليها، محاسباً لها، قائداً الأمة لمناقشتها، ويكون في نفس الوقت حاملاً الدعوة الإسلامية في البلاد الإسلامية، وفي غيرها من باقي أجزاء العالم.